سلمان ناطور

ما يدركه الاسرائيليون وما لا يدركونه

منذ شكل أريك شارون حكومة «الوحدة القومية» في اذار ٢٠٠١، كان يؤكد وبثقة تامة أن حكومته ستصمد حتى نهاية مدتها، أي تشرين الثاني ٢٠٠٣، وكان يعتمد في ذلك على بقاء حزب العمل في الائتلاف الحكومي، وفي الوقت نفسه على انسحابه، فحزب العمل بقيادة بن اليعيزر انسجم تماما مع المواقف التي تعكس «الوحدة القومية» فيما يتعلق بقمع الانتفاضة وضرب السلطة الفلسطينية وبنى المجتمع الفلسطيني ولذلك لم يظهر أي تناقض من شأنه تفكيك هذه الحكومة، ومن جهة ثانية كان شارون يعتمد على أحزاب اليمين التي ظلت خارج الائتلاف كاحتياطي يسند الحكومة في حال انسحاب حزب العمل، كما أن شارون بنى ثقته الزائدة على أنه الجنرال القادر على تحقيق «الأمن والسلام لاسرائيل»، كما وعد في برنامجه الانتخابي وأنه يحظى بثقة غالبية الاسرائيليين الذين يسكنهم الهلع والخوف والقلق من استمرار الوضع الأمني المتوتر والدامي.

سقوط حكومة شارون، وتقديم موعد الانتخابات، وحالة التخبط السياسي التي اصابت الاسرائيليين، وتعميق الشعور بالخوف والقلق، كل ذلك يأتي ليؤكد على حقيقة واحدة وهي أن كل الحسابات التي رافقت هذه الحكومة كانت خاطئة من الأساس، فانضمام حزب العمل الى الحكومة جعله الليكود رقم ٢، أو أنه طبعة سيئة لحزب مركز يذدنب خلف اليمين في المسائل السياسية ويعجز عن قيادة اليسار في المسائل الاجتماعية، فلا هو يمين ولا هو يسار، ولا يستطيع أن يتباهى بالتعددية لأنه فقد العامود الفقري، ولذلك فان أزمته الداخلية وفقد الثقة به جماهيريا، أوصلاه الى مرحلة الانسحاب من الحكومة بدون موقف، انه انسحاب معيب ولا معنى له ولا يستطيع أن يوظفه في الانتخابات المقبلة، من ناحية أخرى فان مشاركة حزب العمل في حكومة يمين متطرف أعطت دفعا

لليمين الأكثر تطرفا، وهذا اليمين يأمل في أن يضاعف قوته في الانتخابات القريبة ولذلك وضع معجزات أمام شارون بحيث لا يحتملها فيعلن عن حل الحكومة والتوجه الى انتخابات مبكرة.

لليمين الاسرائيلي أجندة واضحة سياسيا واجتماعيا، فهو اليمين الذي يواصل منذ عام ١٩٧٧ سياسة الخصخصة والسوق الحرة والارتباط المباشر برأس المال العالمي وتطبيق أحد أهم أهداف الحركة الصهيونية باقامة قاعدة للغرب في الشرق العربي، وهو اليمين الذي يرى في السلام العادل والشامل في المنطقة نهاية المشروع الصهيوني، وأما حزب العمل الوريث التاريخي للقيادة «العمالية» التي أقامت الكيان الاسرائيلي، تحقيقا للأهداف الصهيونية من جهة لكن كمجتمع تتحقق فيه عدالة اجتماعية (بين اليهود)، فقد ساقه التناقض بين الفكر الكولونيالي وبين الفكر الاشتركي، وبين تعريف الصهيونية على أنها حركة تمحور قومي وبين كونها حركة تحرر قومي (وهي ليست كذلك) ، ساقه الى ايثار التعريف الأول والتخلي عن الثاني، ولذلك فقد الحكم لمن هو أكثر خدمة للمصالح الكولونيالية وأقرب الى الفكر القومي الشوفيني والغيبي.

الادراك الاسرائيلي لفكرة السلام والأمن يقوم على زعم صهيوني رائج وهو «العالم كله ضدنا» وأن اللاسامية ظاهرة خالدة ولذلك فان البقاء اليهودي مشروط بالتفوق اليهودي، الحضاري والاقتصادي والأمني، أي أن السلام الاسرائيلي هو ذلك الذي يضمن هذا التفوق، وقد غرس هذا الزعم في الذهن الاسرائيلي حتى أصبح مركبا مركزيا في العقلية السائدة التي تقطع اليمين واليسار على حد سواء، وقد وظفت الصهيونية كل الكوارث التي حلت باليهود لتأسيس هذا الزعم، خاصة ما حدث في القرن العشرين ومع بداية نشاط الحركة الصهيونية، وقد تجاهلت، لا بل أنكرت، أن اليهود في خلال ألفي عام انسجموا كليا في المجتمعات التي عاشوا فيها واندمجوا في هذه المجتمعات ومن حافظ على يهوديته، فقد كانت بالنسبة له ديانة وعقيدة وليست قومية.

لقد تنبهوا الى هذا الواقع في الصدمة الأولى التى زعزعت أركانهم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ اذ ضربت تفوقهم للمرة الأولى بعد حالة البوفوريا التي طيرت صوابهم بتفوقهم الساحق في حرب حزيران ١٩٦٧، وكان من بين المتنبهين الى هذه المسألة أستاذ الفلسفة في الجامعة العبرية البروفيسور ناتان روتنشترايخ الذي كتب مقالا في مجلة «الشتات والوحدة» – بالانجليزية رقم ٢٢/٢١ القدس ١٩٧٣ –١٩٧٤ ، جاء فيه: «يبدو أن فكرة الملجأ الآمن، التي ظهرت منذ المؤتمر الصهيوني الأول في بازل حتى اليوم، وأرشدت الصهيونية بهذا الشكل أو ذاك وقررت مشروعها: دولة اسرائيل، تبدو هذه الفكرة ملغومة» ويستخلص روتنشترايخ أن «اسرائيل لم تحل مشكلة اللاسامية فحسب، بل انها عمقت ودعمت المشكلة باثارتها الغضب على ما صنعه اليهود، وأن الوجود اليهودي الجماعي، وهو لب الصهيونية، لا يزال بدون حل وغير آمن من الدمارالصريح والضمني وفي بعض الأحيان ، الدمار المروع» (اميل توما ، الصهيونية المعاصرة ، الأسوار، عكا ١٩٨٢ ص ٢٨٢)

ما لا يدركه الاسرائيليون أن الحركة الصهيونية شوهت تاريخهم اليهودي وروايتهم التاريخية ونمت فيهم فكرة الضحية الأبدية التي يسكنها خوف وهمي لا مبرر له، ويجعل هذه «الضحية» تتصرف بشكل لا عقلاني لأنها تعيش حالة ليست عقلانية، ولذلك يشككون بكل أفكار السلام التي لا تأتي من «أنبيائهم» الجدد، انهم لا يدركون عمق العقيدة الغيبية الواهية المسيطرة عليهم والتي تجعلهم يتحدثون عن السلام بمفاهيم الحرب وعن الأمن بمفاهيم القوة وينظرون الى الآخر بأنه لا يتجاوز كونه قوة مهددة لبقائهم ووجودهم كيهود، ولذلك فانهم سيبقون بحاجة الى القائد الجنرال والى سلاح الجو المتطور والى القنبلة النووية والى دولة امبريالية تسندهم.

القيادات الاسرائيلية منذ بن غوريون وحتى أريك شارون معنية بتكريس حالة الخوف في أذهان الاسرائيليين، لأن التعامل مع شعب خائف ومتوتر يمنحهم كل الفرص لنشر فكر غيبي رجعي لاعقلاني يخدم مصالحهم ومصالح حلفائهم من الأنظمة الرجعية والامبريالية، انهم بحاجة الى حالة الحرب الدائمة وبحاجة الى كل ما يذكي نار العنف. اللاعقلانية تقبل السلوك اللاعقلاني بيقينية مطلقة، ولذلك فان سقوط حكومة شارون لم يأت على خلفية صحوة وادراك صحيح لحقيقة الواقع بل هو نتيجة خربطة في حسابات القوى الفاعلة على الساحة، انها نتيجة تناقض في المصالح الصغيرة بين هذه القوى، وقد لا تحدث انتخابات كانون الثاني القادم تغييرا جوهريا في المشهد الاسرائيلي الا اذا بدأ الاسرائيليون يدركون أنهم ليسوا ضحية الشعوب الأخرى، بل ضحية الصهيونية المتحكمة بعقولهم.

معظم الاسرائيليين مهاجرون قدموا الى الشرق من جميع أرجاء

العالم، قدموا من فضاءات رحبة الى فضاء ضيق، الى حدود مغلقة الا من جهة البحر، ومع أن الصهيونية وحكامهم ونظامهم غرزوا في أذهانهم فكرة العودة الى الوطن التاريخي الا ان معظمهم لا يسلكون كمواطنين بل كمستوطنين، حتى الذين ولدوا هنا على هذه الأرض، فالمستوطن يتحرك بهاجس السيطرة على المكان الذي يقوم عليه وفي مساحته الضيقة وفضائه الضيق، انه يعمل من أجل تحديد علاقته بالمكان وليس بتحديد علاقة المكان بالجغرافيا المحيطة به، والادراك الاسرائيلي لفكرة المكان والفضاء محكوم بانغلاق ليس له مثيل، فهم يرفضون أن يكونوا جزءاً من هذا الشرق، يرفضون حضارته وثقافته والتواصل معه، استعلاء عليه عند الغربيين منهم واحساسا بالنقص عند الشرقيين منهم، فما لا يدركه الاسرائيليون أنهم اذا أرادوا أن يعيشوا هنا كمواطنين في هذا الشرق، كسكان دائمي الاقامة وليس عابري سبيل، فما عليهم الا أن يكونوا جزءاً من حضارة وثقافة الشرق العربي والجغرافيا والفضاء الواسع وأن هذا يتحقق في ظل سلام شامل يشكل النفي المطلق لكل مقولات الصهيونية وادعاءاتها التي نجحت في تشويه هذا الشرق لكن شوهت بشكل عميق نفسية الانسان اليهودي الاسرائيلي الذي يجد نفسه منذ نصف قرن على مفترقات الطرق، بحيث لا يقدر على التراجع ولا على التقدم.

في استمرار هذه الحالة سيظل الاسرائيلي جنديا يقاتل في حرب لا نهاية لها، ويسقط حكومة وينشئ أخرى، وهو يدور ليعود الى النقطة التي بدأ منها.

الصراع ضد الصهيونية ليس صراعا ضد اليهودية، والصراع ضد الاستيطان اليهودي في الشرق ليس صراعا ضد الوجود اليهودي في الشرق، فالشرق العربي عرف ويعرف كيف يحتضن الثقافات الأخرى دون أن يلغي هويتها، بما فيها اليهودية التي عرفت أهم عهود ازدهارها في الفضاء العربي من النهرين وحتى الأندلس.

ان فهم طبيعة الصراع سيسهل على اليهود الوصول الى السلام والأمن المنشودين وسيسهل على العرب تكوين شرق عربي ديمقراطي وهذا أيضا امل منشود.

الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال

فرع فلسطين

Defence For Children International

Palestine Section

من أجل مستقبل مشرق لأطفال فلسطين

زوروا موقعنا

www.dci-pal.org

رام الله - هاتف: ٢٤٠٧٥٣٠ - ٠٢ فاكس: ٢٤٠٧٠١٨ -٠٢

E-mail: dcipal@palnet.com